مجلة الدراسات الفلسطينية، المجلد 16، العدد 63 (صيف 2005)، ص 121

في الذاكرة
تحية وفاء لسمير قصير

محمود درويش

عاشق الحرية*

كلما التقيت باسمه، أصغيت إلى أغنية صغيرة تمجد قران الفتوة والوعي، واقتران الرأي بالشجاعة... ثم حزنت، لا لأن عمر الورد قصير، بل لأن تلك الوردة لم تكمل تفتحها الساطع على سياج يحترق.

كان سمير مهووساً بالسباق على طريق الغد، ليبقى الفتى الأول. وكان له ما أراد. فإن من سبقنا إلى الغياب لن يكبر مثلنا. هناك، حول صورته، سيجد الزمن نفسه، كعربي معاصر، عاطلاً عن العمل!

أمّا نحن، أصدقاءه وعشاق بيروت المفجوعين، فلن نعتذر عن حلم جميل، مهما ارتدى من أقنعة الفجر الكاذب. ولن تغرينا تعاليم التوازن باتهام شهيد الحرية والحب بالتهور، كما قد يفعل المحاسبون المهرة في مؤسسات العواطف والأفكار.

بل نسأل القاتل: أما كان في وسعك أن تكتب مقالة في جريدة تثبت فيها أن سمير قصير على خطأ، ولا يستحق الحياة في لبنان، ولا في بلد آخر؟

البراهين كثيرة. تبدأ من خلل فادح في خريطة يافا، ومن سلالة لا تستقيم، على الرغم من صحة الولادة، مع معبودات الطائفة والعائلة والقبيلة... ولا تنتهي عند حرمان الغريب من حقه في العمل اليدوي والفكري، ومن إبداء الرأي في المناخ المتغير في المحيط والعالم. لم نقل له من قبل: ما أجملك! فقد كان يعرف ذلك أكثر مما ينبغي، ويعلنه نيابة عنا. لكن للغياب استرجاعاً لزمن أصيب بالفصام.

في لحظة واحدة، في انفجار واحد، ينقلب فعل المضارع إلى فعل ماض ناقص يحتكر الذكرى، وينقص المكان. ويصبح ما بعده ظلاماً يدرك بالحواس الخمس... فبأي قلب أناديه: يا صاحبي لماذا جعلتنا نحبك إلى هذا الحد؟

لم نجتمع إلاّ لنضحك من امتلاء النرجس بالحكمة. فالطفل المعجزة – كما سمّيناه – كان سعيداً بأن يكبر كاتباً ومثقفاً وعاشقاً، دون أن يتخلى عن خصوصية اللقب الذي يضمن له صورة يوسف بين إخوته، وسيرة الفارس المنذور للدفاع عن حرية غريبة الأطوار، وعن ديمقراطية شاذة.

سمير قصير، الراقص الرشيق في حقول الألغام، الساخر من كل انسجام مع عبودية مفروضة أو مختارة، هو أحد أسماء التفوق على صدفة الهوية وعلى التخصص في مدونة واحدة. لذلك صدّق أن في وسع الفلسطيني أن يكون لبنانياً، وأن في وسع اللبناني أن يكون فلسطينياً عربياً، وأن من واجب العربي أن يكون مشاركاً بالتفكير – على الأقل – في التداعيات التي تتركها انقلابات العالم المعاصر على ما يعدّ له من مصائر. وصدّق أن ثقافة الديمقراطية لا تنتهك – بالضرورة – مقدسات التراث القومي!

لذلك لم يقع في شرك السؤال الزائد عن حاجتنا إلى الوجود: مَن أنا؟ فهذا المواطن المتعدد المتجدد المتنور المتطور لا يحتاج إلى برهان على شرعية الأم. لم يقاوم الأصولية بأصولية مضادة، ولا الطائفية بطائفية مضمرة. هويته مفتوحة على غد ينبغي أن يكون مفتوحاً للجميع، وعلى حداثة لا معنى لها – في شرطنا التاريخي – إلاّ بارتباطها بمشروع تحرر شامل المستويات.

من حق الطفل في مساءلة أبيه إلى حق المرأة في خلع الرجل، إلى حق المواطن في تغيير الحاكم، إلى حق الفرد والمجتمع في مقاومة الاستبداد والاحتلال معاً، إلى حق الشاعر في التخلص من الانضباط للقافية، إلى حق الحالمين في أن يحلموا بأنهم أحرار، إلى حق الكاتب في التمييز بين معنى الموت ومعنى القتل!

ألهذا استحق سمير قصير القتل؟

ملء قلبي هجاء لسادة هذا الزمن الذي لا يُسأل فيه عن اسم القاتل، بل يُسأل عن اسم القتيل التالي. كأن القاتل هو الغامض الثابت، والقتيل هو الواضح المتغير. وهكذا تتحول شخوص المسرحية الدموية جمهور مشاهدين يتفرجون على مصائرهم المدونة، ويتحول جمهور المشاهدين شخوصاً في مسرحية لم يقرأوا نصها.

وملء قلبي رثاء مادح لمن كتبوا بالجمر أحلامهم، دون وجل من ضباط الليل، أو خجل من عورة الحقيقة.

وملء قلبي بكاء مالح على لبنان الجميل، الذي أُشبع بلاغة مديح لا يريده واختُزل إلى حد الخنق بصور مستوحاة من أغنيات عن براءة ريفية، ومشهد طبيعي لا يرى منه العابرون إلاّ الأخضر المصفى بأبدية الأزرق. أمّا الأحمر الدامي فلا يراه غير الموغلين في كتابة المستقبل، وملاءمة الصورة مصدرها. لقد نزف لبنان، الحائر المحيّر، كثيراً من الدم لصوغ هويته التعددية، وللخروج من ثقافة الطائفة والعائلة إلى أفق أرحب، فإلى أين؟ إلى أية هاوية يجره الخائفون من خصب الهوية ومن فتنة الأمام؟ إلى أي وراء يريد أن يرجعه مهندسو الظلام؟ يقول المجاز الأكيد: إنها ساعة المخاض الطويلة. وإن الحرية، على ما فيها من جماليات، قد تتوحش ليلة العرس، وتتعطش إلى دم عشاقها. فذلك هو حناؤها الباذخ قبل انصرافها إلى شؤون التدبير المنزلي.

وسمير قصير هو واحد من أجمل هؤلاء العشاق•.

(*) "النهار"، 2005/7/16. كلمة مسجلة عُرضت عبر الشاشة خلال اللقاء الذي أقيم يوم 15 تموز/يوليو 2005 في الذكرى الأربعين لاغتيال الكاتب والصحافي سمير قصير في قاعة عصام فارس، الجامعة الأميركية في بيروت.

حبيب صادق*

لو أُعطي الجماد نعمة النطق، كما أُعطيها الإنسان إذاً لسمعنا، في هذا اللقاء الحميم مع سمير قصير، ما لم تسمع أذن من قبل، لسمعنا، من فورنا، هزيج مباراة حبّية، في كشف النقاب عن ذكريات غالية خبيئة، تجري بين مكونات هذه القاعة المتواضعة: السقف والجدران والأبواب والنوافذ وكل الأشياء المستوطنة فيها... لسمعنا هذه الجمادات تتسايل في لغة ترحيب فرحة بالقادم العزيز إليها بعد فاصلة، محدودة، في صلة وصل لم تنقطع إلاّ على تواصل... ثم لسمعناها – هذه المكونات – تتوالى على الكلام في نقل شذرات مختارة مما استوعبت ذاكرتها من أحاديثه المثقلة بالناضج الممتع من الثمار... لقد كان سمير قصير يطلق أحاديثه تلك، المحددة الهدف والدقيقة الإصابة، من على هذا المنبر، في المواضيع الملتهبة التي تطرحها أسئلة المرحلة اللبنانية – العربية، المكتظة حتى الاختناق بأعتى التحديات وأصلفها من جهة وبأوهى المواجهات وأذلّها من جهة مقابلة...

سخياً كان سمير كعادته في الاستجابة لدعوات المجلس الثقافي للبنان الجنوبي، إلى إرسال القول العميق الجريء، من موقع المثقف النقدي العضوي، في المعقَّد من المسائل التي يحفل بها الواقع اللبناني بخاصة والعربي بعامة، الفلسطيني – السوري على وجه الخصوص...

ولشدّ ما كان يأسر رواد المجلس ليس بعمق تفكيره وجرأة خطابه وصلابة موقفه فحسب بل برهافة حسه، أيضاً، وبدماثة خلقه ورقة حركته وطفولة ابتسامته التي لم تفارق عينيه وشفتيه وقسمات وجهه الطافح بالبشر، دوماً، مهما اشتدت عليه وطأة الأيام.

وما إن انطلقت دعوة المنبر الديمقراطي من القاعة المجاورة، حتى كان سمير قصير من أوائل المستجيبين لها والعاملين بإخلاص، على إغنائها بفكره الوقّاد وثقافته الواسعة ورؤيته المستقبلية منطلقاً من شغفه الشديد بالحرية والتزامه الرسولي بالعلمانية والديمقراطية وإيمانه الخالص بثالوث الوطني والقومي والإنساني.. وكثيراً ما كنا نأخذ برأيه الحصيف إذا ما اعصوصب الأمر وتباينت الآراء وتضاربت المواقف حيال هذا الشأن أو ذاك من شؤون الداخل أو الخارج... من هنا اشتدت الحاجة إلى حضوره الفاعل في اجتماعات المنبر الدورية. بيد أن أمراً قد طرأ في حركة الواقع من حولنا فاسترعى انتباهنا واستثار فينا مشاعر القلق على سمير إذ لاحظنا ملاحقة العسس الأمني له، على نحو ظاهر للعيان لكأنهم يريدون إشعاره، على الدوام، بأنه بات عندهم هدفاً ثابتاً لمطاردة مستمرة لا مهرب له من حبائلها المستنفرة... برغم ذلك فما كنا نجده إلاّ متعالياً عليهم هازئاً بهم ومستخفاً بإجراءاتهم المحمومة وكان، أحياناً، يقودنا إلى النافذة الجنوبية في القاعة ويشير بإصبعه، ضاحكاً، نحو سيارة العسس الرابضة، بعدّتها وعديدها، في الجهة المقابلة لنا...

تلك سمة، بالغة الدلالة، من سمات مزاجه الساخر. ولكن التنظيم الأمني، في المقابل، كان جاداً، كل الجد، في جهوزيته استعداداً لتنفيذ القرار السلطوي في الأجل الموقوت... وقد جاء، أخيراً، هذا الأجل صبيحة يوم ربيعي هادئ فانفجرت لحظة السكون المحايد، بانضباط دقيق في جسده العامر بالفتوة والنضارة والخصوبة، فاستلقى برأسه المخضب بدمه النقي على ساعده المفارق في استسلام وديع فماد المكان قليلاً وتشظّى الفضاء المحيط قبيل أن تتوارى يد الجريمة الشنيعة خلف ظلام الهمجية الضارية.

وعلى الرغم من هول الحدث الجرمي والجرح السحيق الذي حفره في الصدر يتعين علينا أن نعترف، جهاراً، بحقيقتين اثنتين: أولاً أن لا مفاجأة البتة في وقوع هذا الحدث، فسمير كان على لائحة الاغتيال الموقَّعة للتنفيذ عقاباً له على استبساله الاستثنائي في الدفاع عن الحرية وكرامة الإنسان وثقافة الحداثة في وطنه لبنان وفي بقية مواطن العروبة. وثانياً أن نظام الاستبداد لا يتورع عن ارتكاب أفظع الجرائم وأشدها قبحاً ضد خصومه.. وما كان رفيقنا الوديع الوسيم إلاّ المقاتل العنيد، بسلاح الكلمة، ضد أعداء الحرية والديمقراطية وحقوق المواطن في بلادنا العربية وفي بلاد الله الواسعة.

في ضوء ذلك ألا يطالعنا سؤال الذات لجلاء وجه المسؤولية التي نتحملها نحن، أيضاً، في المجتمع المدني: أحزاباً ونقابات ومؤسسات وهيئات؟

أم ترانا نلجأ في الملمات إلى مقولة: لا ينفع حذر من قدر، فنستظل بجبريتها العاتية طلباً للسلامة المجانية في غابة الافتراس الوحشي؟؟

ألا تقودنا دماء سمير الخضراء، من موقع بعينه في الأشرفية إلى مواقع أُخرى بعينها في حضانة بيروت قد تيبّست على أديمها دماء رفاق له في الفكر والموقف والحلم كحسين مروة ومهدي عامل وآخرين؟؟

ماذا صنعنا لرد غائلة الموت غيلة عن قادة فكر ورأي أمثال هؤلاء الأفذاذ؟

وماذا وفرت انتفاضة الاستقلال، لحادي قوافلها مبتكر شعاراتها، من شروط الاطمئنان على سلامة الطريق واستمرار المسيرة؟؟

بل ماذا تبقّى له، ولنا، من حصاد تلك الانتفاضة في حمّى الاقتتال الانتخابي الذي سرعان ما استعر أواره بين متقدمي صفوفها اقتناصاً لموقع مجز في دواوين السلطات القادمة وشيكاً؟..

لا نطلق هذه الأسئلة جلداً للذات أو ندباً على ما فات بل نطلقها دعوة خالصة إلى مراجعة نقدية صارمة ترمي إلى تحقيق غايتين اثنتين معاً: الأولى دفع آفة النسيان عن وجوه الضحايا لكي يتواصل، فينا، حضورها المشع تنويراً وتعبئة وأملاً.. والثانية الإصرار، بلا هوادة، على كشف الأقنعة عن وجوه الجلادين وسوقهم مذمومين إلى حكم العدالة..

** *

يقول سمير قصير مستمسكاً بتفاؤل الإرادة: "لم يفت الأوان بعد".

ثم يمضي غارقاً في دمه المسفوح قهراً وتخلُّفاً وظلامية وسؤال النهضة العربية الموعودة يعلو صفحة وجهه الغارب:

متى، متى يبزغ ذلك الفجر المنتظر؟

أما لهذا الليل العربي الطويل من آخر؟

ومهما يكن من أمر فسنبقى، يا رفيق، من طائفة الأوفياء لك ماضين قدماً نحو حلمك الجميل مستضيئين بإرثك الفكري المتألق، مستلهمين مسيرة نضالك المتوَّجة بدم الشهادة.

فأنت دائماً معنا، يا سمير، في حضورك والغياب.

وأنت معنا، دائماً، في وجوه الحبيبات جيزيل وليانا وميساء،

وفي بحر من الأهل والأحبة والأصدقاء والتلامذة ومن صبايا وشباب ساحة الشهداء.

(*) الأمين العام للمجلس الثقافي للبنان الجنوبي. وقد ألقى كلمته هذه في أمسية عقدت في المجلس بتاريخ 2005/6/18.

يمنى العيد*

لم أسمع صوت الانفجار الذي استهدف حياة الصحافي الشاب سمير قصير. مجرد خبر.. تسرب إلى الضفة الأُخرى من المدينة.

"انفجار في الأشرفية"

كان الخبر في بداية ذيوعه يتسربل بالهدوء، ويشير إلى ما لا يثير ذعر الجماعة.. كان، شأن الرسالة التي تضمنها التفجير، محدداً بمكان، بمساحة صغيرة من مكان، بسيارة، بهدف، بشخص كان قلمه هو هذا الهدف.

على شاشة التلفاز رأيتُ سمير قصير داخل السيارة، رأيت دماً وحطاماً وأشلاء، ووجهاً كان ما زال يشي بالحياة.

هكذا إذن، وبكل هذه البساطة، يقف القاتل في مكان من هذه المدينة، من هذا الوطن.. يقف في ساعات الصباح الأولى من نهار مشرق بالشمس.. ينتظر رجلاً يستيقظ من نومه، يحتسي قهوته، يتهيأ للخروج، يلقي نظرة أخيرة على وجهه في المرآة، يتناول حقيبة عمله، يلقي بجاكتته على كتفه، يغلق باب بيته على وعد بلقاء.. يخرج ولا يعود.

ثمة قاتل كان ينتظر.

كنت أمام الشاشة أتصور اللحظات الأخيرة من حياةٍ تحوَّل صاحبها، هكذا ببساطة، وفي أقل من ثانية، إلى جسد هامد.

وكان الجسد أمام ناظري يضج بالسؤال:

لماذا؟

هذه الـ لماذا كانت مستقرة في ذاكرتنا الحية، نحن الذين/اللواتي شهدنا اغتيال زملاء مفكرين وكتّاب.. زملاء من أصحاب القلم..

هذه الـ لماذا كانت تتوقد بالمشهد الشبيه.. وكانت تضج بلوعة الفقدان..

لماذا؟ وإلى متى يبقى بإمكان أعداء الحرية أن يغتالوا من يمارسون حقهم فيها، حقهم الطبيعي في القول والتعبير؟

خرج مهدي عامل ذات يوم من بيته ولم يعد. في الشارع، فوق الرصيف الذي كان يسير عليه، في الساعات الأولى من نهار شبيه، أردوه قتيلاً.

ودخل حسين مروة بعد ظهيرة يوم شبيه إلى غرفة نومه، استلقى للقيلولة على سريره.. ودخل القتلة خلفه.. قتلوه، ببساطة، بهدوء.. وضعوا حداً لحياته ليضعوا حداً لقلمه..

ثمة آخرون من أصحاب القلم قُتلوا.. تعرفون حكاية قتلهم الشبيه: نسيب المتني، كمال الحاج، الشيخ صبحي الصالح....

لماذا؟

لماذا ما زال القاتل طليقاً ينعم بالحياة؟

لماذا ما زال بإمكانه أن يقف في وضح النهار، في مكان ما من هذا الوطن، ينتظر الضحية ليغتال حريتها، هكذا وببساطة وكأنه يضغط على زر ليطفئ لمبة في سقف منزل؟

كأنه في صحراء !!

وأفكر

ما هذا الوطن الذي علينا أن نحتاط فيه من القاتل بدل أن نلقي القبض عليه!

ما هذا الوطن الذي علينا كي تكون لنا الحياة أن نردع حريتنا بدل أن نردع القاتل!

ما هذا الوطن الذي يحمل مفكريه وكتّابه الحريصين على حريتهم على الاختيار بين الهجرة والموت!

كأنه كان على سمير قصير أن يتخلى عن حريته، أن لا يعبر عن رأيه، أن لا يقول بصراحة ما يفكر به: موقفه، رأيه.. كأن عليه أن يغادر.. كي لا يُقتل.

على الحرية أن تغادر..

على الكتّاب والمفكرين أن يحملوا حريتهم ويغادروا.

يريدون لنا أوطاناً بلا حرية..

يريدون لنا أوطاناً نعاني فيها الحرمان والفقدان: نفياً وقتلاً. هجرة واغتيالاً..

حتى صرنا نعيش مع الصور، ونستعين بالاستعارة، بالذاكرة، بالخيال المرير، بالمجاز الذي لا يشفي غليلاً..

صور داخل بيوتنا لأحياء.. هاجروا.

وصور تغطي جدران المدينة لشهداء.. قُتلوا.

صور لمنفيين، لمهاجرين، لسجناء، لضحايا..

صور ودموع وشموع.. وذاكرة هي الجدار الأخير الذي نسند إليه ظهورنا وقد تقوّست بصوت المتفجرات، تقوّست بعد حرب لم تترك سوى الخراب داخل الروح.

ذاكرة هي المتكأ والعزاء.. نطوقها بذراعين تهمسان بالشوق والحنين.

في المشهد الأخير، الساخن:

جيزال خوري تطوِّق نعش سمير قصير، وتبكي..

وبكيت.. بكى كثيرون.

ليست قلوبنا من حجر كي نرميها.. ونعود لنعيش في وطن ليس بوطن..

وطن يفتقد معناه.

إذ لا معنى لوطن لا حرية فيه.

لا معنى لوطن لا يتمتع مفكروه وكتّابه بحصانة تحفظ لهم حقهم في الحياة، وحقهم في حرية التعبير.

نريد أن نعرف القاتل. القاتل التاريخي، المقنَّع، أو المسكوت عنه..

نريد أن نعرف هذا القاتل الذي يستبيح بكل الوسائل دماء الأبرياء..

نريد أن نعرف، كي يكون لنا وطن نضيء فيه شموع الفرح.

نريد وطناً لا مقبرة.

نريد وطناً عاصمته بجدران بيضاء كتلك التي راح يطرشها خليل أحمد جابر، بطل "الوجوه البيضاء."

نريد وطناً بلا بلاغة تحوِّلُ مآسينا إلى أهازيج، وتجعل من حقنا الطبيعي في حرية العيش والقول، بطولة.

نريد بطولات في الخلق والإبداع، في النهوض والتقدم.

نريد الحياة. والحرية من طبيعتها.

نريد الحرية. والحياة قرينتها.

أيها الزملاء.. والأصدقاء..

من وحي سمير قصير أقول ما أقول، فهو الذي قال:

..."تعلن بيروت أن حب الموت لم يعد سبيل العرب الوحيد".

وهو الذي ربط بين حب الحياة والوصول إلى الحياة الحرة.

نعم إنه حب الحياة الحرة. وهذه مسؤوليتنا.. نحن الذين/اللواتي نحيي ذكراه ونتذكر كل المفكرين والكتّاب، زملاءه الذين اغتالهم القتلة، أعداء الحرية والفكر، عملاء القمع والاستبداد.. في أكثر من مكان من هذا الوطن العربي الكبير•.

(*) ناقدة أدبية وأستاذة في الجامعة اللبنانية. وقد ألقت كلمتها هذه في أمسية عقدت في المجلس الثقافي للبنان الجنوبي بتاريخ 2005/6/18.

محمود سويد*

تحقق، إذاً، بعضُ ما كانه سمير قصير وما ناضل ومات من أجله: الاحتضان نفسه، الغضب نفسه، الوعد نفسه، في دمشق ورام الله كما في بيروت. فأصدقاء سمير وزملاؤه وتلامذته في مثلث النهضة العربية الموعودة (من دون إغفال التموج الهادر في شوارع القاهرة وجامعاتها) انفعلوا بالحدث كما لو أن الجريمة الوحشية ارتكبت في دمشق أو رام الله، وكما لو أن دماء سمير روت الأرض السورية والفلسطينية، تماماً مثلما روت "ربيع بيروت" الموعود، وكما هي ذاهبة حتماً نحو تصويب خطاه، ودفعه في الاتجاه الصحيح. فالمثقفون الوطنيون الذين كان سمير رائداً بينهم في شجاعة المجابهة، لا مفر لهم الآن من المتابعة. إن نظرات سمير الثاقبة ستظل ملتصقة بحدقات عيونهم كأنها تقول لهم بوداعتها الأبدية: لا عذر لكم، هذا دمي تغرفون منه بقدر ما تحتاج المسيرة إليه، فلا تتوقف، ولا تنحرف، ولا تهون.

ما سر هذا الاحتضان؟ ما أهمية هذا الوعد؟

إذا أردنا أن نتقصى تعريفاً لـ "المثقف الشجاع" فهو يتجسد في سمير قصير، كمالاً في التعريف. لا نتحدث عن مثقف شجاع، ولا عن شجاعة مثقف. فكم ممن تحتشد بهم صفوف "المثقفين الوطنيين العرب" (عائلة سمير قصير) هم دون التعريف الذي جسّده سمير، ولا تتصف شجاعتهم المتفاوتة بالكمال الذي توافر لسمير. وبديهي أن الشجاعة الكاملة هنا تتجاوز الكلمة – مهما بلغت أهميتها – إلى الفعل، خصوصاً إذا امتلأ الفعل بالكلمة، وفاضت الكلمة بالفعل، كما هو حال سمير.

ولا يعود سراً تحول التعريف المتجسد، إلى رمز ومثال، متى تعمد بالشهادة، ومتى كانت الشهادة فعل استشهاد لا صدفة فيه ولا تردد.

سمير قصير المثقف اليساري العلماني الديمقراطي، الشجاع حتى الاستشهاد. نعم. ويدل على ذلك ثلاث لحظات في مسيرته:

(1)الدعوة: في منتصف التسعينيات، قدم سمير استقالته من Revue d'études palestiniennes وعزم على الانتقال من باريس إلى بيروت. شاب موقفه يومذاك شيء من التردد، وهو أمر طبيعي، إزاء قرار يتصل بمجرى حياة بكاملها. وكان متاحاً له أن يحقق في عاصمة الثقافة الأوروبية نجاحاً وشهرة يتجاوزان ما يمكن أن يحقق في بيروت. لكن التردد لم يكن سوى لحظة عابرة، فبيروت كانت، بكل ما جال في عقل سمير آنذاك من أدوار ومهمات وبرامج عمل، "دعوة" لا تردد في بلوغها.

(2)الصمود: في الأعوام الأولى من الاستقرار (اللااستقرار) في بيروت، تظافرت عوامل كوّنت لحظة تردد أُخرى: فمن التغييرات القسرية من عمل إلى آخر – ويعني ذلك تلقائياً اهتزازاً في الدخل الضروري لإعالة أسرة، إلى تعثر محاولات بناء التنظيم اليساري، ثم صعوبات نهوض الوطن المدمر، ثم الهوة المتزايدة العمق والاتساع بين عالم يتدفق حيوية وتقدماً وانفتاحاً عابراً المسافات والحواجز والعوائق ليقتحم الناس في بيوتهم ويحرضهم على النهوض، وبين عالَم عربي غارق في التخلف والكسل والعجز والاستبداد.

كل ذلك لم يكن ليبعث على تفاؤل مناضل (Militant) حتى ولو جبلته عقيدته وأفكاره وثقافته وهمته على معاندة اليأس ودحره. لكن لحظة التردد هذه عبرت بسرعة، وكان العزم على الصمود والاستمرار قوياً بقدر ما كانت "الدعوة" التي ملأت عقل سمير ونفسه قوية وراسخة. هذا فضلاً عن أن إغراءات أية مدينة أُخرى في العالم لم تكن لتصمد أمام عشقه لبيروت التي تماهى معها حتى امتزجا جسداً وروحاً.

(3)التصميم: لا أظن أن شخصاً حاد الذكاء راجح العقل واسع المدارك مثل سمير قصير، كان يمكن أن يحسن الظن بالقتلة الذين كان يواجههم، فسجلهم لا يشهد على شيء آخر، سوى أنهم قتلة ينتمون – كما قال الرئيس الفرنسي جاك شيراك في اغتيال الشهيد رفيق الحريري – إلى زمان آخر. وليس على بطاقة سيرتهم (C.V.) سوى مهنة إفقار شعوبهم وتجهيلها وإذلالها، وإرهاب الوطنيين والمناضلين الشرفاء ومطاردتهم وقتلهم.

هل كان سمير يشك في أنهم سينالون منه؟ طاردوه وهددوه ووجهوا إليه الإنذار تلو الإنذار، وكانوا يكذبون في كل شيء إلاّ في هذا. وكان سمير يعرف ويدرك. ومع ذلك لم يغير حرفاً واحداً مما دأب على كتابته، ولم يبدل مسلكاً واحداً من مسالك حياته اليومية: في البيت وعلى الطريق وفي المقهى والنادي الثقافي ومع الأسرة والأصدقاء والرفاق والطلاب في الجامعة، مثابراً ومبتسماً وناشطاً ومفجراً الأفكار والطاقات ظل يعمل لدنياه كأنه يعيش أبداً. أمّا الموت والآخرة فشأن آخر، لا وقت له في برنامجه اليومي المكتظ بأشياء الحياة.

سمير قصير، المثقف اليساري العلماني الديمقراطي الشجاع، يتماهى مع اللحظة المتفجرة التي تمتزج فيها ذروة الحياة برحيل لا نعرف كنهه، كما البرق يضيء ثم يختفي.

"باق وأعمار الطغاة قصار" يا سمير. أمّا حياتك الباقية فتشهد عليها جرأة الشعوب العربية المتنامية على تحدي الطغاة، وأسراب السنونو تخترق الأسوار الصماء التي رفعوها لتسييج السماوات العربية، حاملة ربيع الحرية والديمقراطية ومرهصة بالنهضة الآتية لا محالة، وفضلك في ذلك كبير•.

(*) ألقى الأستاذ محمود سويد هذه الكلمة في أمسية عقدت في المجلس الثقافي للبنان الجنوبي بتاريخ 2005/6/18.

مجلة الدراسات الفلسطينية، جميع حقوق النشر وإعادة التوزيع محفوظة لمجلة الدراسات الفلسطينية، ولا يمكن نشرها أو توزيعها إلكترونياً إلا بإذن من رئيس تحرير المجلة وذلك عبر الكتابة إلى العنوان البريدي التالي: majallat@palestine-studies.org
يمكن تحميل هذه المقالة أو طبعها للاستخدام الفردي وعند الاستخدام يرجى ذكر المصدر:
http://www.palestine-studies.org/ar_index.aspx